الوثائقية

آخر تحديث : الاربعاء 27 اكتوبر 2010 08:29 مكة المكرمة

لحظةٌ أيها المجد

"وداد"... صوتٌ آتٍ من خزائن الذاكرة

صلاح سرميني - باريس

إلى من صور لي الدنيا كقصيدة شعر...(1)

منذ فترةٍ طويلة، لم أشاهد فيلماً تسجيلياً عربياً (أو لمُخرجٍ/ة عربي/ة) هزّني وجدانياً، وأصبح بالنسبة لي "تعويذةً سينمائيةً" مثل ما فعله "لحظة أيها المجد" لمُخرجته اللبنانية "شيرين أبو شقرا" من إنتاج Le Fresnoy "الأستوديو الوطني للفنون المُعاصرة" عام 2009، هذه المدرسة الفرنسية المعروفة بتدريسها المُغاير للاختصاصات السمعية/البصرية الأقلّ أكاديميةً من زميلتها الـ La Femis "المدرسة الوطنية العُليا لمهن الصورة، والصوت".
منذ تلك الليلة التي شاهدتُ فيها الفيلم، وصوت المطربة "وداد" الشخصية الرئيسية، يُلاحقني أكثر من صورتها التي قدمتها المُخرجة بتقتيرٍ مونتاجيّ مُحكم، ذكيّ، وخارج عن مألوف الأفلام التسجيلية البسيطة، والتبسيطيّة المُتأثرة بالتحقيقات التلفزيونية، والتي لا تتخطى موهبة مخرجيها أكثر من إفراطٍ مُبالغٍ في تصوير الشخصيات، وسيل مُتدفق من الحكي (وصفٌ مؤدبٌ للثرثرة).
صاغت" شيرين أبو شقرا" شريط صوتٍ أكثر إبداعاً، وتأثيراً، وفيه يتشابكُ بوحُ المطربة "وداد" القريب من الهمس مع مقاطع من أغانيها.
ماذا يهمّ المتفرجُ من هذه المرأة النادرة، والمنسيّة أكثر من سماع صوتها، والقليل القليل من سيرتها المهنية التي لا ندري إن كانت حقيقية، أو مُتخيلة : حكايتها عن جدّها اليهوديّ من أصلٍ روسيّ الذي كان يمتلكُ ربع روسيّا ـ على حدّ قولها ـ، ولقائها الأول مع المطرب "محمد عبد الوهاب" الذي سمع صوتها لأول مرةٍ، وطلب منها بأن تُسجل المبلغ الذي تريده في العقد الذي قدمه لها،....
لقد امتزجت كلمات "وداد" مع أغانيها في غناءٍ متواصل، أوصلها إلى درجةٍ من الإنعتاق، حالة صوفية بامتياز.
وفي لعبةٍ إبداعية حاذقة، تأتي الأغاني المُحتفى بها في شريط الصوت من داخل المشهد نفسه خلال التصوير،

ومن خارجه عن طريق مزج الأصوات (الميكساج) في مرحلة تشطيب الفيلم.
حيث استخدمت المُخرجة آلة تسجيلٍ لم نرَها أبداً في الصورة، وكانت بمثابة الأسئلة التي يتوّجب عليها طرحها، والأجوبة المُفترضة من المطربة "وداد".
في الفيلم، تتواجدُ "شيرين أبو شقرا" في كلّ ثناياه، بجانب الكاميرا في غرفة مستشفى حيث نُحسُّ بانفعالاتها، وابتهاج ضحكاتها مُصغيةً إلى "وداد" تفتحُ لها خزائن ذكرياتها المُختبئة في تقاطعات ماضيها، وأمام الكاميرا عن طريق حضورها الجميل كمُخرجة (لقطةٌ اعتراضية يظهر فيها الكلاكيت المُستخدم للتصوير)، والمُتخيّلة/التمثيلية كمُمثلة، ولكنها تُقصي تماماً أسئلتها من شريط الصوت (وحسناً فعلت)، ماعدا مرةً واحدةً في اللحظات الأخيرة من الفيلم، بدون السقوط في فخّ "التقريرية"، وعلى العكس، رُبما يكون سؤالها الوحيد فرصةً حلوة لتركيب صوتها على صورتها التي تجسّدت في إحدى الشخصيات النسائية المُتوّهمّة.

صورة مركبة لوداد مع العائلة ثم مع بليغ حمدي

وهنا، لا أدري لماذا بدأتُ الحديث عن شريط الصوت في الفيلم قبل الصورة الأكثر خصوبةً، فإذا كانت الأغاني من إبداع "وداد"، وأخريات، صاغتها "شيرين أبو شقرا" في خلطةٍ لذيذة، لا جدال في أنّ الصور المُتنوعة المقاسات التي التقطتها كاميراتٍ مختلفة (سوبر 8 مللي، 16 مللي، فيديو)، ورصعت بها فيلمها هي من إبداعها الخاصّ، "صوتها الداخلي" الذي يتدفقُ بالتوازي مع الأغاني.
ويمكن أن تشطح القراءة بعيداً، عندما نشعرُ(أشعرُ) بأنّ الفيلم يحكي بنعومةٍ أنثويةٍ عن امرأتينّ عاشقتينّ، "وداد" المطربة، و"شيرين" السينمائية، حتى وإن ظهرت الثانية في مشاهد تمثيلية خالصة.
تتضحُ في الفيلم حالةٌ من التماهي المُعلن، أو الضمنيّ مع الشخصية الرئيسية، يبدو بأن المُخرجة تحبها إلى درجةٍ الرغبة بالاستحواذ على صوتها (ومن لا يحلم بامتلاك موهبتها)، ولهذا ظهرت "وداد" في لقطاتٍ قليلة بالمُقارنة مع اللقطات التمثيلية التي تمتعت بها "شيرين".
هناك تشابكٌ، تداخلٌ، تطابقٌ، أو بالأحرى "تعانقٌ عشقيّ" بين "الصورة/الصوت"، "الصورة/الصورة"، و"الصوت/الصوت".
يتجسّدُ الموت الزاحف في اللقطات القريبة جداً التي تظهر فيها المطربة "وداد" مُمددةً في سرير غرفة مستشفى، بينما تنضحُ الحياة في اللقطات العامة التي تنتشي بها "شيرين أبو شقرا"، وبعض الشخصيات المُتوهمّة في مشاهد تمثيلية تتدفقُ أحداثها في الطبيعة، الشوارع، والمُدن المُتداخلة بصرياً .

لقد بدأ الفيلم بشاشةٍ سوداء، استباقٌ جنائزيّ، ولكن، حالما تملكتني فرحة غامرة بمُشاهدة مطربةٍ لم أكن أعرفها (سامحيني يا وداد)، وأشجاني صوتها حتى الوجع بصدمةٍ غير مُتوقعة كشفتها اللقطة الأخيرة، الختامية.
"لحظة يا شيرين"، لقد تلاعبتِ، بما يكفي، بخصائص الأفلام التسجيلية، الروائية، التجريبية، التحريك، الفيديو كليب، .. وتضاعفت موهبتكِ الجليّة، ومتعتي.
ولكن، تلك اللقطة المُغلفة بإضاءةٍ شديدة، وناصعة، وحدها، تلك اللقطة فقط، كنتُ أتمناها بأن لا تكون.
سريرٌ فارغٌ، باردٌ، أغطيةٌ بيضاء، وفي العمق خيالات ممرضة تُغلق ستارةً، ويتوقف تدفق الفيلم، لقد انتهت أحداثه، اختفت "وداد" من الصورة، والحياة، وبقي صوتها يترددُ مع توالي العناوين على الشاشة.
كي يصبح "لحظة أيها المجد"، إبداعاً سينمائيّاً استثنائيّاً، وطبقاً طائراً يحوم في سماء السينما العربية.

وداد في الثمانينات

وفي مرحلة متأخرة من حياتها

***

إلى أماية 1931-2009
إلى بهية/بيبي/وداد
إلى كلّ النساء التي جسّدت، وجعلتني أعايش يا لضنّ الزمن(شيرين أبو شقرا).

***

ـ منذ لحظاتٍ شاهدتُ مرةً أخرى فيلمكِ "لحظة أيها المجد"، وكما وعدتكِ، سوف أكتب عنه في موقع "الجزيرة الوثائقية"، ....كلّ ما يمكن قوله الآن، بأنني بعد المُشاهدة، وعلى الرغم من أنني لستُ مرهقاً، لم يعد لديّ الرغبة بمُشاهدة أيّ فيلمٍ آخر كعادتي بعد منتصف الليل.

ورُبما، سوف أكتفي بكتابة هذه الرسالة، وأخلدُ إلى النوم، أسترجعُ الصور الحلميّة التي نضحَ بها الفيلم، وتلك الأغاني التي لم نعدّ نسمعها اليوم، لكِ مني كلّ الإعجاب.
صلاح.
***

ـ أشكركَ على كلامكَ الرقيق هذا الصباح، وعلى تشجيعكَ.
بعد وفاة "وداد" وجدتُ نفسي عاجزةً عن مشاهدة الفيلم، وغرقتُ في التفكير، والإحساس بالذنب بكلّ ما كنتُ أودّ أن أقوله لها، وعنها، والأسئلة المُتراكمة التي لم أسألها إياها، وكل ما كنتُ أودّ عمله في الفيلم، ولم أقدر بسبب الوقت الموجود، هذا المشهد الذي تكلمتَ عنه في المستشفى، كان من أصعب المشاهد التي صورتها، لأنّ "وداد" كانت ترغب دائماً بصورةٍ رقيقة ترى فيها أنوثتها، أذكرُ بأني تكلمتُ مع مخرجٍ حادٍّ، ونقديّ، وبحتُ له بترددي عن تصويرها في تلك الحالة، فأجابني :
ـ "اعملي ما هو الأصعب، وخذي القرار لاحقاً".
طبعاً، كرهتُ نفسي، وأنا أصورها، ولم أتركَ غير هذا المشهد الأخير...
مضت سنة على وفاتها يوم عشرين الشهر الماضي(فبراير 2009)، خسارةٌ كبيرة،...سوف أكفّ الآن عن الميلودراما،....إلى لقاء قريب.
شيرين.
***

ـ أفهمُ مشاعركِ جيداً، إذا كان المشهد الأخير قد هزّني من الأعماق، وصدمني، لأنني لم أتوقعه، فكيف يكون حالكِ، وأنتِ التي تابعتِ أيامها الأخيرة، رُبما لحظةً بلحظة،، مشاعركِ نحو هذه السيدة الفاضلة، يعني بأنكِ كنتِ صادقةً تماماً في إنجاز الفيلم، وسكنَ أحاسيسكِ، ومشاعركِ، ومن ثمّ تمكنتِ من توصيل ذلك الشجن إلى المُتفرج.
بالنسبة لي، يعود الفضل لكِ لأنك نبشتِ في ذكريات مطربة لا أعرفها، ومنحتِ "وداد" فرصةً أخيرةً، وأبديةً للتعبير عن داخلها، وعملياً، عادت إلى الحياة من جديد، بعثتِ الروح فيها من خلال الصورة، والصوت، فأضفتِ عاشقاً جديداً لها، ولصوتها المُذهل، وبالمُقابل، بعثتِ الروح السينمائية الخامدة في السينما العربية التقليدية، الكسولة، والتي تمضغُ مفرداتها التعبيرية، وتدورُ، وتلفُّ حول الموضوعات الكبرى بكثيرٍ من التكلف، والنفاق.
لم يكن فيلمكِ استثماراً مجانياً لتلك اللحظات الأخيرة من حياة "وداد"، ولم تكن الكاميرا مُتلصصةً لإثارة فضول المُتفرج، ورغباته السادية الكامنة، والتي تُثيرها عادةً الصور التلفزيونية القادمة من ساحات الحروب، والكوارث البشرية.
تنضحُ صور الفيلم، وأصواته بالحياة، وتُزيد من حبنا لها، في قالبٍ سينمائيٍّ يجمعُ مابين التقليديّ والحداثيّ، الماضي، والحاضر، إنه فيلمٌ خارجٌ لتوّه من القلب/الحبّ.
بانتظار الكتابة تفصيلاً عن هذا الإبداع السينمائيّ المُتفرد في السينما العربية التسجيلية، سوف أستوحي عنوان فيلم السوريّ "عمر أميرلاي" : "هنالك أشياء كثيرة كان يمكن أن يتحدث عنها المرء" عن "لحظة أيها المجد"(2) .

صلاح

هوامش :

(1) ـ من الفيلم القصير "مسافة السكة" للمُخرجة اللبنانية "شيرين أبو شقرا" من إنتاج عام 2008

(2) ـ نُشرت الرسائل المُتبادلة بمُوافقة المُخرجة "شيرين أبو شقرا".

© جميع الحقوق محفوظة لقناة الجزيرة الوثائقية 2010

Designed & Developed by Aljazeera IT